

## خصوصيات لغة التواصل عند عبد القاهر الجرجاني من خلال كتابيه "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة"

### The Peculiarities of the Language of Communication According to Abdelkader al-Jaurjani through his Books: "Evidence of Miracles" and "The Secrets of Rhetoric"

ط د- زبيدة قابوسة<sup>1\*</sup>، د- العزوزي حرزولي<sup>2</sup>

<sup>1</sup> جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي، (الجزائر)، zoubaidagaboussa@gmail.com

<sup>2</sup> جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي، (الجزائر)، lazzouzi1970@gmail.com

مخبر بحوث في الأدب الجزائري ونقده

تاريخ النشر: 2021/06/30

تاريخ المراجعة: 2021/06/12

تاريخ الإبداع: 2021/05/05

#### ملخص:

اهتم علماء اللغة منذ الزمن البعيد بالتواصل وعناصره وطرق نجاحه وأيضا بشروطه اللغوية، وغير اللغوية التي تعد من أساسيات الدرس التداولي حديثا، والبلاغي قديما الذي من بين رواه الإمام عبد القاهر الجرجاني، كونه اهتم باللغة أثناء الاستعمال لا بعزلها عنه كبنية مجردة من خصوصيات مميزة من شأنها إذا توفرت في اللغة أهلت المتخاطبين لنجاح عمليتي الفهم والإفهام ومنه إلى نجاح العملية التواصل بصفة عامة . ففي هذه الورقة البحثية سنحاول الوقوف على بعض أسس التواصل اللسانية منها وغير اللسانية التي اعتمدها إمام البلاغة من خلال تحليلاته التداولية لمجموعة خصوصيات ومعايير تواصلية في كتابيه "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" وسنعمد في ذلك خطة مناسبة تمثلت في: مقدمة، وعرض تضيمن خصوصيات لغة التواصل، وخاتمة.

الكلمات المفتاحية: التداولية، التواصل، الاستعمال، المتخاطبين، القصد، التأويل.

#### Abstract:

Linguists have long been concerned with communication, its elements and methods of success, as well as its linguistic and non-linguistic terms, which are among the basics of the modern pragmatic lesson, and the rhetoric in the past. Abdelkader al-Jaurjani was one of the pioneers because he was interested in language in use not by isolating it from it as an abstract structure of distinctive features. If the language is present, it will qualify the interlocutor for the success of the process of understanding and being understood, and from it to the success of the process of communication in general. In this research paper, we will attempt to focus \*on some of the linguistic and non-linguistic foundations of communication that Imam

\* المؤلف المراسل.

*al-Balagha adopted through his deliberative analyzes of a set of communicative peculiarities and criteria in his books "Evidence of Miracles" and "Secrets of Rhetoric". They adopted an outline plan in that: an introduction, a presentation that included the specifics of the language of communication, and a conclusion.*

**Keywords:** pragmatics, communication, usage, communicative, intent, interpretation

### تقديم:

إنّ حديثنا عن اللغة وخصوصياتها هو حديثنا عن التواصل، الذي هو الجسر الرابط بين المتكلم والمتلقي في تبادل الرؤى والأفكار والتعبير عن المقاصد والأغراض، ولذا اهتم العلماء قديما وحديثا بهذا المصطلح مفهوما وممارسة، سواء تعلق هذا الأمر بالكلام المنطوق أو المكتوب، وأصبح بذلك علما له أسسه وآلياته، وشروطه التي من أهمها السياق المقامي الذي بدوره يشمل القصد وخصوصية التركيب والتأويل، وأيضا الافتراضات المسبقة وغيرها من الشروط التي بدورها تحقق نجاحا للتواصل.

وهذا الذي ذكرناه أكده الدرس التداولي الحديث بزعامة أوستين (John Langshaw Austin) 1911 - 1960، وسيرل (John Rogers Searle) 1932- 2016، وغرايس (Herbert Paul Grice) 1913- 1988... والمُنْبَثِق عن الفلسفة التحليلية وتحديد فلسفة اللغة العادية، التي تعد الموجه لتغيير منهج دراسة اللغة، وذلك من خلال فكرة فيتغنشتاين (Ludwig Wittgenstein) 1889- 1951 التي مفادها أن اللغة عبارة عن لعبة تختلف وظائفها حسب سياقات نظمها، وعليه فقد عرف هذا التيار بأنه العلم الذي يهتم بدراسة اللغة مع ربطها بسياقها المقامي. هذا في الدرس الحديث، أما عن الدرس العربي القديم وأقصد علم البلاغة، فما أقره من أفكار أو معطيات فأغلبها واحدة بالنسبة للدرس الحديث تقريبا، كونه العلم الذي يهتم بمجريات طرائق التأليف من جهة وطرائق التأويل من جهة أخرى، فهو إذا علم لغة التداول. ولتوضيح ذلك بصورة أدق اخترنا أحد أعلام هذا الدرس وهو "عبد القاهر الجرجاني" (ت 471هـ) لمعرفة بعض الشروط التي عرضها في كتاباته، والتي تعدّ من أساسيات لغة التداول التي يلزم أخذها بعين الاعتبار ليتم التواصل على أحسن طرقه.

وعلى أساس ما سبق نختصر الهدف في الإشكال الآتي: ما هي خصوصيات لغة التواصل عند عبد القاهر

الجرجاني؟

وللإجابة على هذا السؤال حددنا كتابين من مؤلفات عبد القاهر وهما: "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة"، إذ يظهر فيهما التواصل وشروطه وما ينبغي أن يكون في هذه العملية بصورة جلية ومُعتمدة. وهذه بعض الأساسيات المطروحة فيهما:

### اللغة والقصد:

إن الحديث عن التواصل هو الحديث عن آلياته وأسسها وشروطه، وعن مستقبل الرسالة وناظمها (المتكلم) هذا الأخير منطلق هذه العملية وممثلها الأول نظرا لفاعليته المتمثلة في تحريكه الدائرة التخاطبية من خلال رغبته في التعبير عن شيء يکنه بداخلة أو ما يعرف بالقصد الذي يعد من أساسيات

التواصل وشروطه ونظرا للأهمية البالغة بل وركيزة من ركائز التخاطب نجد عبد القاهر الجرجاني " اعتمده في جل نماذجه المقدمة سواء كانت متعلقة بعلم المعاني أو علم البيان أو علم البديع.

وهذا الشرط غير اللساني لم يبدأ الاهتمام به مع عبد القاهر الجرجاني وإنما يمتد إلى زمن بعيد سواء كان الأمر دراسة، أو حسا كما هو مجسد على أرض الواقع من خلق جمادات وحيوانات و...، فلم تخلق الأشياء عبثا وإنما وراء كل ذلك غاية تُنشد. ولم يتوقف الحديث أيضا عن هذا الشرط عنده هذا الإمام وإنما هناك دراسات حديثة أعطت الأهمية البالغة له بدليل أنها جعلت أسسا ومباحثا عن طريقها يصل المؤول إلى قصد المتكلم وغرضه، ومن أهم هذه الدراسات ما يعرف باللسانيات التداولية، التي مدار اهتمامها الوصول إلى القصد.

وعلى هذا القدر من الأهمية لهذا العنصر فقد عدّ الجرجاني ترتيب الكلام مرهون بوجود قصد فيقول: << لا يكون ترتيب في شيء حتى يكون هناك قصد >><sup>1</sup> ليؤكد أن اللغة المنظومة أو المرتبة لا يمكننا أن نطلق عليها هذه الصفة إلا إذا كانت مرتبة وفقا لقصد المتكلم؛ لأنه بالقصد يحصل التواصل سواء نجح أم لم ينجح. وليتضح الحديث أكثر عن هذا الشرط نعود إلى ما عرضه عن علاقة الجانب النفسي بالتأليف الكلامي؛ كون هذا الأخير منطلقه الترتيب في النفس أولاً ليكون فيما بعد داخل نسق لغوي وفق شروط أخرى معينة.

أما عن هذه العلاقة القائمة بين الجانبين: النفسي والتأليف الكلامي فإنها تتجلى في المرحلة الأولى من النظم كما أكده الجرجاني في قوله: << فإذا وجب لمعنى أن يكون أولاً في النفس، وجب أن يكون للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولاً في النطق >><sup>2</sup>؛ أي أن النظم لا يكون بطريقة عشوائية وإنما يحدث عن طريق اختيار مجموعة من الدلالات المعبرة عن قصد الناظم، وفي مرحلة ثانية وهي مرحلة "التأليف" فهي متعلقة بالجانب النحوي؛ أي أنها ذات طبيعة لغوية، ففي الأولى يتحقق التلاؤم بين العلاقات الدلالية والتركيبية، وفي الثانية ينتقل المستوى الأول التجريدي إلى هذا المستوى الثاني الواقعي لتشكل فيه تلك العلاقات من خلال عمليتي نطق الألفاظ المناسبة للمعاني المجردة والتنسيق أو التعليق بينها وفق ذلك التصور المسبق، وبعبارة أخرى فإن الألفاظ تابعة للمعاني، مستواها الأول غير منطوق فهو نفسي عقلي، والثاني خلاف ذلك؛ أي أنه لغوي يحدث فيه النطق و ترتب فيه الألفاظ وفق المعاني أو الدلالات النحوية<sup>3</sup>.

ولقد جعل الجرجاني النظم أفضل الوسائل للكشف عن مقاصد المتكلمين<sup>4</sup>؛ كونه عبارة عن نص رتب ونظم على أسس نحوية، وهذه الأسس أصلها معان نفسية تتعلق بمقاصد المتكلم، فهي بذلك تنطلق مما هو مشترك ليسهل على المؤول تفكيك شفرات الكلام ليصل إلى القصد، ثم ينطلق في تفكيك الشفرات الداخلية بحكم أنّ الألفاظ أوعية المعاني، فما هو مرتب في الظاهر هو مرتب في الداخل، وهذا ما صرح به الجرجاني في قوله: << ... أن اللفظ تبع للمعنى في النظم، وأن الكلم تترتب في النطق بسبب ترتب معانيها في النفس >><sup>5</sup> وعليه فإن تأويلنا للكلام ليس هو تأويلنا للمفردات وهي بعيدة عن تعليقها بعناصر أخرى غير لغوية؛ فالفرق شاسع بينهما، كون المفردات لها دلالات معينة، وفي التركيب لها معان أخرى جديدة نشأت بنشوء هذا التعليق الجديد.

ونظرا لما سبق فإنّ الحديث عن ترتيب الكلام في النفس هو الحديث عن المتكلم بصفة خاصة وعن المتلقي بصفة عامة؛ كون الأول منتج الكلام وناظمه، وأما الثاني- وأقصد المتلقي- فهو المؤول لهذا النظم ليعي أن

التأويل ليس بالأمر الهين وذلك من خلال معرفة مراحل التأليف أو الإنتاج (خاصة المرحلة الأولى) التي تجاوزت المرحلة الواحدة لتكون الأولى غير نطقية والثانية نطقية.

وعليه فمادام أن التواصل يعتمد القصد كأساس، والقصد يتميز بالدقة والصعوبة في تأليفه، فإن التلقي إذا احتاج مؤولا عالما باللغة وبآليات التأويل.

والدارس لكتابي الجرجاني "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" فإنه يجد أن المباحث التي عرضها سواء كانت نحوية أو بلاغية لها علاقة وطيدة بقصد المتكلم وخاصة لما قدم عديد الأوجه للمبحث الواحد كما هو في باب الفروق في الخبر- وخصوصا في حديثه عن الفرق بين الخبر إذا كان بالاسم، وإذا كان بالفعل- وهذه أمثلة توضح ذلك: "زيد منطلق"، "زيد ها هو ذا ينطلق"، فهنا القصد يختلف حسب التركيب أو النظم الذي نظمته صاحبه؛ ففي التركيب الأول القصد منه إثبات الانطلاق فعلا له، من غير أن تجعله يتجدد ويحدث منه شيئا فشيئا، بل يكون المعنى فيه؛ أي كأنك قلت "زيد طويل"، فهنا لا نقصد أن نجعل الطول يتجدد ويحدث بل لنثبت لموصوفه فقط. أما الثاني فإن المتكلم هنا يزعم أن الانطلاق يقع منه جزءا فجزءا<sup>6</sup>. فللتعريف دلالة وللتنكير دلالة، وكذلك للضمائر دلالة أخرى مختلفة و... لكل واحد من هذا له موضعه الخاص الذي يتأتى على أساس قصدي فيجاء به المتكلم حين ينبغي له، وعليه فكل زيادة في المبنى هي زيادة في المعنى.

ويتضح المقال أيضا في المقابلة الآتية بين الجملتين المتعلقتين بالتقديم والتأخير في النفي<sup>7</sup>:

(ما فعلت): هذا التركيب الخاص بنفي المسند، يقال حينما يقصد المتكلم نفي فعل لم يثبت أنه مفعول.

(ما أنا فعلت): أما هذا التركيب الخاص بنفي المسند إليه، فيقال حينما يقصد المتكلم نفي فعل ثبت أنه

مفعول.

ومن هنا فإن هذه التراكيب عبارة عن أساليب مخصوصة متعلقة بما يكنه المتكلم من مقاصد.

وفي السياق نفسه يورد الجرجاني العديد من النماذج كما في الحذف والذكر مثلا، فيقول الشاعر في

بيت انزاح عن أصله في تركيبه النظمي، وهو:

العين تبدي الحب والبغضا \*\*\* تظهر الإبرام والنقضا

درّة ما أنصفتني في الهوى \*\*\* ولا رحمت الجسد المنضى

غضبي ولا والله يا أهلها \*\*\* لا أطعم البارد أو ترضى

ففي صدر البيت الثالث هناك حذف للضمير " هي " <sup>8</sup> ولو أرجعنا الكلام إلى أصله لوجدناه على هذا النسق: " هي غضبي "، إلا أن المتكلم تعمّد ذلك عن قصد؛ كون القارئ حينما يباشر الخبر مثلا في القراءة فإنه يبدأ مباشرة التفكير في المحذوف السابق عليه (المبتدأ)، بينما لو افترضنا هنا في حذف الخبر فإنه سينطلق بقراءة المبتدأ ويواصل القراءة إلى أن يكتشف أن الخبر محذوف. فالنمط الأول يدعو إلى العودة إلى الوراء بحثا عن المبتدأ المحذوف، وهذا الأمر يتعلق بغرض بلاغي وجمالي أكثر. أما النمط الثاني فإنه يدعو إلى مواصلة القراءة إلى جانب مواصلة البحث عن الخبر، وعن الأمر الأول فقد أطلق عليه الجرجاني عبارة "القدرة على التناسي": أي إن المؤول يُجبر فكره على تناسي أن ثمة محذوفا في التركيب المعني، على الرغم من درايته بأن هناك أحد العناصر قد حُذف، ومن الواجب أنه يكون موجودا ليصل به إلى قصد المتكلم، إلا أنه يتناسى ذلك فيجد فيه لذّة جمالية تأخذه إلى البحث عن سر هذا الحذف والغرض منه<sup>9</sup>.

هذا فيما يخص بعض الدلائل التي تثبت للقصد أهميته من خلال مباحث علم المعاني، أما فيما يخص علم البيان فنجد في سياق حديثه عن الاستعارة المفيدة فيقول مثلا: "رأيت أسدا" فالتكلم هنا يريد رجلا شجاعا، والقصد من ذلك هو المبالغة في الوصف. وكذلك نجد في عبارة "رأيت بحرا" فإنه يقصد رجلا جوادا. و"رأيت بدرا" فإنه يقصد إنسانا مضيء الوجه متهللا وكل ما شاكل ذلك من قبيل ما ذُكر<sup>10</sup>.

ومما هو ملاحظ هو أن القصد قد شمل جميع الفروع اللغوية من مثل مفاهيم البيان، والبلاغة بما في ذلك المجاز وغيرها فكلها تحت غاية واحدة وهي إيصال قصد المتكلم إلى السامع في أحسن صوره التعبيرية. فهو (القصد) بذلك خصوصية لا يمكن للغة أن تنفصل عنها، وإن حدث ذلك فلا تكن الاستجابة من قبل المتلقي كما ينبغي أن تكون في التواصل المقصود، وبالتالي يكون هذا التخاطب غير ناجح.

وبناء على ما سبق فإن القصد جوهر ولبنة التواصل والمحرك الأول لهذه العملية، ورغم ذلك إلا أن هذا الجانب يتلوه جانب آخر يتمثل في توخي معاني النحو وهو كما سنتحدث عنه في الخصوصية الآتية.

### اللغة والنحو:

يعد النحو من أهم الشروط اللغوية التي يجب أن تؤخذ كأساس في التواصل، بل كواجب يُلزم المتكلم نظم كلامه وفقه، ليقرب بذلك المقصود للمتلقي ويسهم في نجاح عملية التأويل بالنسبة له. وعليه فاللغة تركيبها معتمد على هذا الجانب اللساني كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك، فهو يأتي مباشرة بعد الترتيب النفسي للكلام، وهو القالب أو الخصوصية اللغوية التي تسهم في رفع شدة النجاح التخاطبي.

ونظرا لهذه الأهمية فقد اشتهرت نظرية الجرجاني المعروفة بنظرية النظم بمصطلح أسهب فيه كلاما وهو "توخي معاني النحو"، وحين قولنا النظم فإننا قلنا توخي معاني النحو، وحين قولنا هذا الأخير فإننا قلنا التواصل الذي يتعلق أساسا بائتلاف الكلمات بعضها ببعض، لأن الكلمة المفردة لم توضع لإفادة معانيها بل لكي تترابط وتفيد، وبدون تلك المعاني تكون عبارة عن تراكمات متباعدة في معانيها (غير مترابطة)؛ أي كأن كل كلمة مستقلة عن غيرها من الكلمات الأخرى. ولتوضيح المقام نورد هذا النموذج القرآني: {الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم} الفاتحة، الآية: (1)، (2) فالنظم هنا هو أن الحمد: مبتدأ، والله: خبر، ورب: صفة ومضاف للعالمين، والعالمين: مضاف إليه، والرحمان الرحيم صفتان لله، فالنظم في نظر الجرجاني هو العلاقات النحوية بين مدلولات ألفاظها؛ بحيث يكون لكل كلمة وظيفة نحوية إلى جانب الدلالة المعجمية؛ فالحمد مثلا هو المعنى المعجمي المدلول على مفردة الحمد، وإضافة إلى ذلك فإن لها دلالة نحوية<sup>11</sup>. وأيضا في باب التقديم والتأخير يذكر الجرجاني الكثير من الأمثلة من بينها: "أأنت فعلت؟"؛ أي أنك بدأت بالاسم فكان الشك في الفاعل من هو، ومثيل ذلك قولنا: "أفرغت من الكتاب الذي كنت تكتبه؟ أقلت الشعر الذي كان في نفسك أن تقوله؟"... وغيرها من التراكيب التي يُستفهم فيها عن الفعل في حد ذاته. أما إذا استفهم المتكلم باسم كفي عبارة: "أأنت كتبت هذا الكتاب؟" "أأنت قلت هذا الشعر؟" فإن الشك هنا واقع في الفاعل وليس في الفعل<sup>12</sup>. وعليه فإن هذا النوع من التراكيب يشير إلى أمرين:

الأول: أنّ قصد المتكلم وإن كان يوجد في مرحلة قبل التصريح -لفظا أو كتابة- فإنه من الضروري إخضاعه للنظم الذي تحكمه معاني النحو.

الثاني: وبما أن القصد مجرد في طبيعته (متعلق بالجانب النفسي ويتم ترتيبه ذهنيا قبل إنجازه قوليا) فإن المؤول لا يدركه ولن يدركه إلا عن طرق التركيب المنجز أو النظم بصورة أدق.

وعن هذه العلاقة القائمة بين النظم والنحو يقول الجرجاني: «اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخلُ بشيء منها.»<sup>13</sup> وفي هذا المقام فقد وضّح أكثر فاعلية النحو في التواصل لتتضح بذلك العلاقة بين الكلمات بمعان نحوية، فيقول: «اعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علما لا يعترضه الشك، أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب، حتى يعلق بعضها ببعض، ويبني بعضها على بعض، وتُجعل هذه بسبب من تلك... وإذا كان كذلك فبنا أن ننظر إلى التعليق فيها والبناء، وجعل الواحدة منها بسبب من صاحبها، ما معناه وما محصوله؟ وإذا نظرنا في ذلك، علمنا أن لا محصول لها غير أن تعمد إلى اسم فتجعله فاعلا لفعل أو مفعولا، أو تعمد إلى اسمين فتجعل أحدهما خبرا عن الآخر أو تُتبع الاسم اسما على أن يكون الثاني صفة للأول، أو تأكيدا له، أو بدلا منه أو تجيء باسم بعد تمام كلامك على أن يكون صفة أو حالا أو تمييزا أو تتوخى في كلام هو لإثبات معنى، أن يصير نفيًا أو استفهاما أو تمنيا، فتدخل عليه الحروف الموضوعه لذلك أو تريد في فعلين أن تجعل أحدهما شرطا في الآخر، فتجيء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى، أو بعد اسم من الأسماء التي ضمنت معنى ذلك الحرف وعلى هذا القياس.»<sup>14</sup> وفي هذا الكلام دلالة على أن السياق اللغوي له علاقة وطيدة بالسياق المقامي؛ أي إن الخصوصية النحوية التداولية بارزة في هذا الكلام وذلك من خلال ما يعرف بمصطلح "التعليق" الذي هو مصطلح نحوي بامتياز، وعلى هذا الأساس فإن النحو هو الفيصل في معرفة فساد النظم من صحته؛ فإن لم يلتزم بالقواعد النحوية فيوصف بالفساد، وإن التزم بها فيوصف بالصحة.<sup>15</sup> وإنما عندما نقول القواعد النحوية فإننا لا نقصد أننا نتبع قوالب جملية معينة وهو المطلوب، وإنما نتبع هذه القواعد وفقا لمناسبة الكلمات بعضها لبعض مع ربطها بسياقها المقامي الذي وردت فيه، ودليل ذلك تعلق اسم باسم، وتعلق اسم بفعل، وتعلق الحرف بهما كما قسمها الجرجاني؛ لأن النظم يتصل بالمعنى في جوهره من حيث هو تصور لتلك العلاقات النحوية، وبعدها تأتي المزية والفائدة من وراء كل نظم بما في ذلك مواقع الكلمات بعضها من بعض وكذلك استعمال بعضها من بعض. وما دام أن الألفاظ لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، فإن الفكر لا يتعلق بمعاني الألفاظ في أنفسها، وإنما يتعلق بما بين المعاني من علاقات، وهذه المعاني ما هي إلا معاني النحو<sup>16</sup> ومن خلال ما تقدم فإن اللغة التي تتواصل بها تختلف وظائف مفرداتها حسب قصد المتكلم والمعطيات المحيطة بالسياق المقامي وكل هذا تحت الشروط النحوية التي لا يختلف في الاستناد عليها في العملية التخاطبية.

هذا بالنسبة للتأليف، أما بالنسبة للتأويل فلا تقل أهمية النحو وفاعليته فيه، ومن لم يعتمد في ذلك فهو قد أخطأ، وكلام الجرجاني هذا موجه إلى من تجاهل ذلك واحتقره: «أنظروا في الذي اعترفتم بصحته وبالحاجة إليه هل حصلتموه على وجهه؟ وهل أحطتم بحقائقه؟ وهل وفيتم كل باب منه حقه، وأحكمتموه إحصاءا يؤمنكم الخطأ فيه إذا أنتم خضتم في التفسير وتعاطيتم علم التأويل، ووازنتم بين بعض الأقوال وبعض، وأردتم أن تعرفوا الصحيح من السقيم وعدتم في ذلك وبدأتم وزدتم ونقصتم؟»<sup>17</sup> فكأنه في هذه الرسالة يكن حسرة أو غيظا شديدا على من «يخوضون في التفسير ويتعاطون علم التأويل وهم في خلاء من علم النحو

لدرجة المشاحة في الضروري منه وغير الضروري؛ أي إنّ التّأويل عندهم ليس سوى لجاجة عقلية ومماحكة مذهبية»<sup>18</sup> وهذا الأمر يدل على أن المؤول يجب أن يكون عالماً باللغة وقواعدها وأسرارها و... ليكون أقرب لقصد المتكلم لا بعيداً عنه.

ومن الأمثلة التوضيحية لمعرفة ما مدى أهمية العلاقة بين العنصرين -التأليف ومعاني النحو- ما وجدناه في حروف العطف "كالفاء" التي تفيد الإشراك والترتيب من غير تراخ، كما في قولنا: "سألني فأجبتته"، و"ثمّ" التي تفيد إضافة إلى الإشراك الترتيب مع تراخ، كقولنا: "خرجتُ ثم خرج زيد"؛ أي أنّ خروج زيد كان بعد خروجي بفارق زمني، وكذلك الأمر مع "أو" كفي قلنا: "يعطيك أو يكسوك" فدلت على أنه يفعل واحداً منهما لا بعينه، وهذا يعني أنها تفيد الإشراك مع التخيير. أما الحال مع "الواو" الذي عُرف عنه عموماً أنه يفيد معنى الإشراك؛ فإذا كان المخبر عنه في الجملتين واحداً من قبيل قولنا: "هو يقول ويفعل، يضر وينفع، ويسيء ويحسن..." فقد أفدنا بالواو أنّنا أوجبنا له الفعلين جميعاً، وجعلناه يفعلهما معاً، ولتتضح الغاية أكثر من عرضنا هذه النماذج نعرج قليلاً بالمثال السابق لنحذف منه حرف العطف -الواو- لتصبح العبارة كالآتي: "هو يضر وينفع"؛ أي أنّ قولنا ينفع قد يكون رجوعاً عن قولنا "يضر" وإبطالاً له<sup>19</sup>. وعليه فإن هذا الشرط التواصلية الذي عرضه الجرجاني يدل على أن لغة التحوار تعتمد على الجانب النحوي بصورة أساسية. فهو شريك القصد وشريك التّأويل في ذلك، ومنه فهو شريك لغة التواصل بصفة عامة.

وفي السياق نفسه يشبّه الجرجاني من زهد في النحو بقوله: >> وأما زهدهم في النحو واحتقارهم له وإصغارهم أمره، وتهاونهم به، فصنيعهم في ذلك أشنع من صنيع في الذي تقدم، وأشبهُ بأن يكون صدّاً عن كتاب الله، وعن معرفة معانيه»<sup>20</sup>، فهو قد أعطى الأهمية البالغة لهذا المعيار، بل مجده وعدّه من زهد فيه فكأنه صد عن كتاب الله ولذلك فإنه من خصوصيات اللغة وواجبنا أن نتحلى به.

### اللغة المشتركة:

كما ذكرنا سالفاً أن لكل خصوصية تواصلية مهمة لا يمكن الاستغناء عنها أو تخطيها، ولو حدث ذلك فإن التواصل سيكون أقرب إلى الفشل لا النجاح، ومن بين هذه الأسس "اللغة المشتركة" التي هي واحدة من حقل أوسع وهو "الخلفية المعرفية"، ولهذه الحقيقة ما يدل عليها وتحديداً حين يحاول متكلم ما من جماعة لسانية ما أن يتلفظ وينجز أداءً موفقاً وناجحاً من خلال اعتماده على بعض الصيغ والكلمات وتوظيفها في إطار جماعة لسانية أخرى؛ حيث يؤدي هذا الحيز الاستثماري للكلمات في جماعات لسانية إلى عدم الوصول إلى الغرض المرجو<sup>21</sup>، كونهما لم يشتركا في المعطيات اللغوية وغير اللغوية، ولهذا >> فكل من عرف أوضاع لغة من اللغات، عربية كانت أو فارسية، وعرف المغزى من كل لفظة، ثم ساعده اللسان على النطق بها، وعلى تأدية أجزائها وحروفها، فهو بين في تلك اللغة، كامل الأداة، بالغ من البيان المبلغ الذي لا مزيد عليه، منته إلى الغاية التي لا مذهب بعدها»<sup>22</sup> وما قصده الجرجاني هنا يتوافق والدرس التداولي الحديث؛ حيث نجد سيرل يشترط سلسلة من الاستدلالات يجب أن يشتركا فيها أقطاب العملية التخاطبية، ومن بينها المعارف اللسانية<sup>23</sup> كاللغة المتخاطب بها في حد ذاتها، وقواعدها الصوتية والصرفية والنحوية، والأسس الفنية الجمالية وغيرها من السلاسل اللغوية إضافة إلى غير اللغوية، كون السلاسل بنوعها يقودان المتكلم والمتلقي إلى بناء كلام يطابق ذلك المقام من جهة، والتأويل الصحيح أو القريب إلى الصحيح على الأقل من جهة أخرى؛ لأن المرجعية المشتركة كما قال عنها الدكتور

عز الدين إسماعيل هي الأرضية الحضارية المشتركة ، فالمخاطب والمخاطب كليهما لن يستطيعا العبور من المعنى الأول إلى المعنى الثاني المقصود حتى تكون هناك معارف مشتركة بينهما<sup>24</sup>. وهذا الذي ذكره الجرجاني يشبه ما أقره فيتغنشتاين حول وظائف اللغة وأقصد مصطلح "الألعاب اللغوية"؛ حيث يرى أن وظائف اللغة لها علاقة باستعمالات مجموعة لسانية ما؛ فلو أن أحد المنتمين إلى مجموعة لغوية ما خاطب شخصا من مجموعة لغوية أخرى لم تستخدم اللغة مثل ما تستخدمه المجموعة الأولى في السياقات نفسها أو التي تشبهها، فيكون التواصل في هذه الحالة غير ناجح، والسبب في ذلك غياب المرجعية المشتركة بين المتخاطبين وتحديدًا فما ينقصهم "الاستخدام" وليست الكلمات.

وما أشار إليه الجرجاني في كتابه " أسرار البلاغة" في سياق الحديث عن التشبيه والتمثيل و... إلى أن >>الطيب في المسك والحلاوة في العسل، والمرارة في الصاب، والشجاعة في الأسد، و... فكل واحد يعلم أن أخص المنيرات بالنور الشمس، فإذا أطلقت ودلت الحال على التشبيه لم يخف المراد، ولو أنك أردت من الشمس الاستدارة لم يجز أن تدل عليه بالاستعارة ولكن إن أردتها من الفلك جاز، فإن قصدها من الكرة كان أبين، لأن الاستدارة من الكرة أشهر وصف فيها.<<<sup>25</sup> فكل هذه الأمثلة بين فيها أهمية المعارف المشتركة بين الناس بأنها أسس التواصل فينبغي مراعاتها عند استعارتها، فكأن العرف اللغوي يتجاوز تحديده الدلالة الوضعية للكلمات، ليعطي للكلام أو النص بعدا فنيا منطلقه تلك المعطيات المتعارف عليها، وهذا ما يفيد المتلقي في فهمه كلام الطرف الآخر والفائدة نفسها حين يتبادل الدور ويكون المتكلم هو المتلقي آنذاك<sup>26</sup>.

ومن خلال ما سبق يتبين لنا أن لغة التواصل يجب أن تكون لها علاقة بمعارف المشاركين اللغوية كانت أو غيرها في العملية التخاطبية قصد حصول عمليتي الفهم والإفهام على أحسن حال.

**اللغة والمقام:**

إن اللغة يجب أن تكون حاملة لقصد، وهذا القصد يرتب في قالب نحوي، وهذا القالب يجب أن يكون شريكا بين المتخاطبين، ولكن على ماذا يعتمد المتكلم حين يريد الإفصاح عن قصده إضافة إلى ما ذكرنا، فهل يتوقف عند هذا الحد أم هناك شرط آخر يُوقِّق التواصل على أساسه؟

وللإجابة على هذا السؤال نعود لما نتداوله في البلاغة" لكل مقام مقال"، هذا الكلام يشير إلى أن مقاصدنا تُنتج وفقا لمقامات تخاطبنا، وهذا ما أكده الجرجاني من خلال حديثه عن القرائن التي نعتمدها كأداة مساعدة في فهم الرسائل اللغوية بما في ذلك القرائن الحالية، فيقول تحديدا في سياق حديثه عن أغراض ذكر الأفعال المتعدية وأقسامها، وذكر من بين هذه الأقسام "حذف مفعول مقصود لدلالة الحال عليه" وفيه نوع تدكّر الفعل وفي نفسك له مفعول مخصوص قد عُلم مكانه، إما بجري ذكر، أو دليلٍ حالٍ<sup>27</sup>، ومن أمثلة ذلك أن ننظر في هذه العبارات: "أضربت زيدا؟" فالإنكار هنا ليس أن يكون من المخاطب ضرب، وإنما أن يكون وقع الضرب منه على زيد؛ وبعبارة أخرى أن الغرض متعلق بالمفعول لا الفعل، وإدراكنا هذا المعنى يُستشف من المقام الذي ورد فيه<sup>28</sup>. وأيضا: >> فإذا قلت "رجل جاءني": لم يصلح حتى تريد أن تُعلمه أن الذي جاءك رجل لا امرأة، ويكون كلامك مع من قد عرف أن قد أتاك آت. فإن لم ترد ذلك، كان الواجب أن تقول: "جاءني رجل"، فتقدّم الفعل. وكذلك إن قلت: "رجل طويل جاءني"، لم يستقم حتى يكون السامع قد ظنّ أنه قد أتاك قصير، أو نزّلته منزلةً من ظنّ ذلك<<<sup>29</sup> وفي هذا الكلام إشارة إلى مراعاة السياق الذي تنشأ فيه التراكيب، فلو لم يعتبر



المتكلم حال مخاطبه مثلا فإنه سيخفق تواصله معه وهذا ما تثبته الأمثلة سابقة الذكر؛ فإن لم المخاطب يعرف أنه قد أتى المتكلم آت، وأن هذا المتكلم أراد أن يخبر مخاطبه بمجيء رجل له وليست امرأة لما بدأ بذكر الجنس. وكذلك الحال بالنسبة لجملة: "رجل طويل جاءني" فهي لم تُنظم دون وجود خلفية معرفية -أو قل سياقية بصفة عامة- لدى المتخاطبين وإنما على أساس أن المتلقي ظنَّ أنّ الذي جاء هو رجل قصير. وللبقية قياس. فهو بذلك يعطي للسياق المقامي الأهمية الكبيرة في العملية التخاطبية، وذلك لما يقدمه من تعويض لما تجاهله المتكلم من جهة والمُساعد في عملية البناء بالنسبة للمتكلم من جهة أخرى.

فهم وظيفة اللغة ومنه الوقوف الدقيق على مقاصدها الاستعمالية لا يكفيه النظر في دلالاتها المعجمية، وإنما يجب أن نتواصل عن طريق ربط السياق اللغوي بالسياق المقامي أو ما يعرف بسياق الموقف الذي ورد فيه الكلام، بما فيه اعتبار شخصية المتلقي والزمان الذي نظم فيه والمكان أيضا، وكل الظروف المحيطة بذلك كالإملاءات والإشارات و... هذا بالنسبة للمتكلم. أما بالنسبة للمتلقي فيلزم عليه اعتبار شخصية المتكلم وإشاراته وملامح وجهه و... في العملية التأويلية.<sup>30</sup>

فلكل قاعدة من قواعد اللغة سواء أكانت من مباحث علم المعاني أو علم البيان أو علم البديع لها دلالة يقتضيها السياق وتحدها المقاصد؛ فكلما ذكرت أجزاء الجملة استلزم قصدا معيّنًا، وهذا القصد لا يكون بعيدا عن السياق المقامي؛ لأننا لو رجعنا إلى أصل التأليف وسببه نجد أنه يتعلق أساسا بقصد المتكلم، ولكن هذا القصد يزوج المقام في النظم.<sup>31</sup>

وفي حديث الجرجاني عن أقسام الكلام نجد إشارة ضمنية عن السياق المقامي فيقول: «ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وذلك إذا قصدت أن تُخبر عن "زيد" مثلاً بالخروج على الحقيقة، فقلت: "خرج زيد" أو بالانطلاق عن "عمرو" فقلت: "عمرو منطلق"، وعلى هذا القياس. وضرب آخر لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالةً ثانية نصل بها إلى الغرض؛ ومدار هذا الأمر على "الكناية" و"الاستعارة" و"التمثيل"»<sup>32</sup>. فالنوع الأول من الكلام واضح المعنى لا يستدعي الدقة في التأويل، على عكس الثاني الذي يحتاج إلى ذلك؛ كون المعنى خفي لا يصل إليه المتلقي إلا عن طريق آليات التأويل التي من بينها قدرة المؤول على الربط بين ماهو منطوق أو مكتوب والمقام الذي ورد فيه، وبعبارة أخرى القدرة على الاستدلال. وبناء على هذا فإن المقام بطريقة أو بأخرى من أساسيات التواصل ومن عناصر نجاحه أيضا.

وفي الحقيقة أنّ ما قدمه الجرجاني من نماذج وما تركه تنطوي تحت لواء اللغة المشتركة التي لولا اعتبارها في العملية التخاطبية لما أدرك المتكلم والمخاطب القصد على حدّ سواء وإن كانت العبارات بسيطة، كأن نقول مثلا: "زيد المنطلق" أو "المنطلق زيد" فإن المتلقي لن يصل إلى ما هو مرجو من هذا التأليف؛ كونه مجهل أحد أهم مغاليق التأويل وهي اللغة في حدّ ذاتها -وما يتعلق بها-<sup>33</sup>.

وما نخلص إليه أخيرا إن القصد متعلق بالنحو والنحو يجب أن يكون مشتركا بين الجماعة اللغوية الواحدة وتكون أيضا المعطيات غير اللغوية واحدة بين عناصر التخاطب (المتكلم والمتلقي)، إضافة إلى السياق المقامي الذي هو القالب الأشمل للتواصل، فهو الجسر الذي يُؤلف بمعنيته ويُؤول بمعنيته. وعليه فلا يمكننا

إهمال أي عنصر من هذه العناصر في العملية التخاطبية، بل من الضروري التأكيد على كل واحدة منها ليتحقق بذلك نجاحه، كونها خصوصيات للغة التواصل.

وهذا الذي ذكره الجرجاني من خصوصيات تواصلية يوافق ما أكده الدرس التداولي الحديث، فذكره للقصد يقابله الفلسفة الظاهرانية والتي موضوعها القصد. وذكره للنحو لم تهمله التداولية كونه المنطلق في الدراسة، ولولاه لما ميزنا بين الكلام المباشر وغير المباشر، وعليه فهو من شروط التواصل. أما عن المعطيات المشتركة فتعد أحد مباحث هذا الدرس الحديث والمتمثل في الافتراض المسبق أو ما يسمى أيضا بالمعرفة الخلفية. وأخيرا المقام وهو الأهم من المهم؛ حيث حاز على القسط الكبير من الاهتمام والعناية، وعلى أساس ذلك عُرفت التداولية بأنها " علم استعمال اللغة"، وكذلك فيما يخص تقديم الجرجاني أضرب الكلام فذلك يقابله التقسيم التداولي إلى أفعال مباشرة وأخرى غير مباشرة. وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على أن تراثنا العربي زاخر بالمعارف التي أسس لها حديثا وإن لم تكن المصطلحات نفسها، وعليه فمن المهم دراسة تراثنا دراسة علمية متأنية تساعدنا في الإفادة من الدرس الحديث للتأسيس لنظرية لغوية عربية.

### هوامش وإحالات المقال

#### الإحالات:

- 1 عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تع: محمد محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ط، 1404 هـ-1984 م، ص: 365.
- 2 ينظر المرجع نفسه، ص: 52.
- 3 ينظر: سعيد حسن بحيري، القصد والتفسير في نظرية النظم (معاني النحو) عند عبد القاهر الجرجاني، الأنجلو المصرية، د.ط، 1990، ص: 28-26.
- 4 حيدر جاسم جابر الدينيناوي، القصيدة وأثرها في توجيه الأحكام النحوية حتى نهاية القرن الرابع الهجري، أطروحة دكتوراه، الجامعة المستنصرية، فلسفة في اللغة العربية وأدائها، 1436 هـ-2015 م، ص: 471.
- 5 عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 56.
- 6 ينظر: المرجع نفسه، ص: 174.
- 7 ينظر: المرجع نفسه، ص: 124.
- 8 ينظر: المرجع نفسه، ص: 152.
- 9 - ينظر: بيان شاكر جمعه - حمد شبيب مهند، قراءة في نظرية النظم، مجلة الأنبار للعلوم الإسلامية، الأنبار، المجلد الأول، 2009 م، ص: 265.
- 10 ينظر: عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مطبعة المدني، القاهرة- دارالمدني، جدة، 1412 هـ-1991 م، ص: 33.
- 11 ينظر: حسن طبل، المعنى في البلاغة العربية، الفكر العربي، القاهرة، ط.1، 1418 هـ-1998 م، ص: 35-36. وينظر: محمد عبد المطلب، قضايا الحدائث عند عبد القاهر الجرجاني، الشركة المصرية العالمية للنشر- لونغان، مصر- مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، د.ط، 1995 م، ص: 59، 60.
- 12 ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 111.
- 13 المرجع نفسه، 81.
- 14 المرجع نفسه، ص: 55.
- 15 ينظر: المرجع نفسه، ص: 84. وينظر: أم الخير بن الصديق، النظرية النحوية عند عبد القاهر الجرجاني وتطبيقها في المقررات اللغوية التعليمية لأقسام السنة الثانية ثانوي- آداب-، أطروحة ماجستير، جامعة ورقلة، كلية الآداب واللغات والعلوم الإنسانية، ص: 42.
- 16 محمد عبد المطلب، قضايا الحدائث عند عبد القاهر الجرجاني، ص: 60.
- 17 المرجع نفسه، ص: 30.
- 18 الرفاعي عبد الحافظ حافظ، التأويل البياني عند عبد القاهر الجرجاني، ص: 248. [https:// archive.ardetails alaataamimi728- gmail](https://archive.ardetails alaataamimi728- gmail)
- 19 ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 224-226.
- 20 المرجع نفسه، ص: 28.

- <sup>19</sup> ينظر واضح أحمد، الخطاب التداولي في الموروث البلاغي العربي من القرن الثالث الهجري إلى القرن السابع الهجري، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران، كلية الآداب والفنون اللغات والفنون، 2011م-2012م، ص: 219.
- <sup>22</sup> المرجع السابق، ص: 6.
- <sup>23</sup> ينظر: حورية رزقي، البعد التداولي في تأويل المعنى المضمر، حوليات المخبر، جامعة خيضر بسكرة، ديسمبر 2015، ص: 83.
- <sup>24</sup> ينظر: سعيد حسن بحيري، القصد والتفسير في نظرية النظم (معاني النحو) عند عبد القاهر الجرجاني، ص: 39.
- <sup>25</sup> حسن طبل، المعنى في البلاغة العربية، ص: 31. ينظر: عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص: 90-91، 93.
- <sup>26</sup> حسن طبل، المعنى في البلاغة العربية، ص ن.
- <sup>27</sup> ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 145.
- <sup>28</sup> ينظر: المرجع نفسه، ص: 156.
- <sup>29</sup> المرجع نفسه، ص: 143.
- <sup>30</sup> عقيلة مصيطفي، آليات التواصل الأدبي ومقصدية الخطاب عند عبد القاهر الجرجاني، مجلة الأثر، جامعة غرداية، العدد، مارس، ص: 26.
- <sup>31</sup> ينظر: حيدر جاسم جابر الدينيناوي، القصيدة وأثرها في توجيه الأحكام النحوية حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ص: 32.
- <sup>32</sup> عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 262.
- <sup>33</sup> ينظر: المرجع نفسه، ص: 186.

### قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

كتب:

1. حسن طبل، المعنى في البلاغة العربية، الفكر العربي، القاهرة، ط. 1، 1418هـ-1998م.
2. سعيد حسن بحيري، القصد والتفسير في نظرية النظم (معاني النحو) عند عبد القاهر الجرجاني، الأنجلو المصرية، د.ط، 1990.
3. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تع: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ط، 1404هـ-1984م.
4. أسرار البلاغة، مطبعة المدني، القاهرة- دار المدني، جدة، 1412هـ-1991م، ص: 33.
5. محمد عبد المطلب، قضايا الحدائث عند عبد القاهر الجرجاني، الشركة المصرية العالمية للنشر- لونغان، مصر- مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، د.ط، 1995م.

مقالات:

6. بيان شاكر جمعه - حمد شبيب مهند، قراءة في نظرية النظم، مجلة الأنبار للعلوم الإسلامية، الأنبار، المجلد الأول، 2009م.
7. عقيلة مصيطفي، آليات التواصل الأدبي ومقصدية الخطاب عند عبد القاهر الجرجاني، مجلة الأثر، جامعة غرداية، العدد، مارس، 2016.
8. حورية رزقي، البعد التداولي في تأويل المعنى المضمر، حوليات المخبر، جامعة خيضر بسكرة، ديسمبر 2015.

مذكرات:

9. أم الخير بن الصديق، النظرية النحوية عند عبد القاهر الجرجاني وتطبيقها في المقررات اللغوية التعليمية لأقسام السنة الثانية ثانوي- آداب،- أطروحة ماجستير، جامعة ورقلة، كلية الآداب واللغات والعلوم الإنسانية.
10. حيدر جاسم جابر الدينيناوي، القصيدة وأثرها في توجيه الأحكام النحوية حتى نهاية القرن الرابع الهجري، أطروحة دكتوراه، الجامعة المستنصرية، فلسفة في اللغة العربية وأدائها، 1436هـ-2015م.
11. ينظر واضح أحمد، الخطاب التداولي في الموروث البلاغي العربي من القرن الثالث الهجري إلى القرن السابع الهجري، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران، كلية الآداب والفنون اللغات والفنون، 2011م-2012م.

- المواقع:

12. الرفاعي عبد الحافظ حافظ، التأويل البياني عند عبد القاهر الجرجاني، [https:// archive.org/details/alaatamimi728-gmail](https://archive.org/details/alaatamimi728-gmail)

20160306- 1353